

الجانب التربوي والتعليمي في واقعة الغدير

أ.د. دلال عباس - الجامعة ا

الملخص

واقعة الغدير (الحدث و الخطبة - الوصيّة) تهدف إلى تنظيم المجتمع الإسلامي و إرساء قواعده روحياً و عملياً، إنّها وصيّة النبي صلى الله عليه و آله و سلم الأخيرة، العامّة و النهائية كي لا يضلّ المسلمون من بعده أبداً ، وهي الدرس الأخير قبل الامتحان النهائي الذي سيخضعون له بعد رحلة نبيهم و معلّمهم الأوّل إلى الرفيق الأعلى.

سينجحون أم سيخفقون؟

إنّ استقراء الخطبة - الوصيّة بيّن لنا أنها انتظمت في بناء هندسيّ تداخلت لبنائته و تراصت تراصاً متيناً، وتضمّنت بعض الوصايا و بعض ما حرّم الله عزّ و جلّ في كتابه، و تحديد اسم الولي - المعلّم الذي سيخلف الرسول - المعلّم الأوّل ، و يتولّى من بعده مهمّة الإرشاد و التعليم و التقويم، ليكونوا خير أمةٍ أخرجت للناس إن هم أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر. إنّ كتاب الله و دروس النبي (خطبه و أحاديثه) دلّت المسلمين على جوانب المنكر المختلفة، لكنّ النبي في هذا الدرس الأخير يركّز على نقاط بعينها: (الحثّ على تقوى الله، و التحذير من البغي و العدوان، و العودة إلى السنن و التقاليد و المآثر الجاهليّة القبليّة، و الثأر و الربا و النسيء، و النظرة الدونيّة إلى المرأة، و التمييز العنصريّ بين البشر.

لماذا هذه النقاط بالذات؟

هل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدس أن أكثرية العرب ستعود إلى سيرتها الأولى؟

و لماذا طلب إليهم التمسك بكتاب الله و بولاية عليّ عليه السلام؟ ما هي صفاته معلّمًا متممًا رسالة النبي؟ و لماذا هو بالذات؟ و ما هي الطرائق التعليميّة التي اتّبعتها؟ و ما هو دور الاستفهام الإنكاريّ أسلوبياً. في التحذير و التعليم و الحضّ على اتّباع التعاليم؟

ستجيب الورقة عن هذه الأسئلة و عن غيرها، مفترضةً أن العرب أو جلّهم أو بعضهم عادوا إلى سيرتهم الأولى و غلبوا مصالحهم الشخصيّة و القبليّة على مصلحة الأمة، وميّزوا بين الناس على أساس العرق لا على أساس التقوى... (لا فضل لعربي على أعجميّ... إلا بالتقوى)

ستبقى حادثة الغدير، و الخطبة المنبثقة عنها وثيقة تُرفع في كلّ لحظة لتبيّن للمسلمين عامّة مدى بعدهم عمّا دعاهم إليه الرسول في درسه الأخير لينجحوا في الامتحان.

كان الراسبون كُثُر ، و الذين نجحوا على الرّغم من عددهم القليل علاماتهم تتفاوت بحسب بعدهم أو قربهم من مجموع الوصايا...

الكلمات المفتاحيّة:

الغدير - حجة الوداع - الولاية - التقوى - الكفر - مآثر الجاهليّة - النساء - الميراث - الأخوة...

تمهيد

ثلاثة وعشرون عاماً انقضت والنبى صلى الله عليه وآله وسلم يبلغ العرب [الذين انتدبهم الله عز وجل ليوصلوا خاتمة الرسالات الإلهية إلى الناس في مشارق الأرض ومغاربها] رسالة ربه ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وفي السنة العاشرة للهجرة النبوية، بعد أن انتهى من أداء فريضة الحج في مكة المكرمة، وفي طريق العودة إلى المدينة تتبعه جموع الحجاج، وقبيل وصوله إلى "غدير خم"، حيث تنتشعب طرق المدنيين والبصريين والعراقيين نزلت عليه الآية السابعة والستون من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾. هنالك أمرٌ جليلٌ يجب أن يبلغه للناس لكي تكتمل الرسالة، وهذا الأمر الخطير لن يعجب البعض، ومن لا يلتزم بهذا الأمر الجليل أي بهذا البلاغ الأخير كافرٌ والله لا يهدي القوم الكافرين. حينئذٍ أمر الرسول فجمع الناس وصلى فيهم صلاةً وألقى فيهم خطبةً رسم لهم فيها معالم الطريق الذي يجب أن يسلكوه من بعده، مركزاً فيها فضلاً عن تسمية الولي الذي سيسير بهم على الجادة، على أمورٍ كان يعلم أنها متأصلة فيهم ولن يتخلوا عنها بسهولة، وأوضح ما في الأمر أن ما حذرهم منه النبي في خطبته الأخيرة لا يزال متأصلاً فيهم حتى يومنا هذا، كأنهم لم يُسلموا، أو كأنهم لا يزالون حديثي عهدٍ بالإسلام.

كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتوقَّع، وقد عانى ما عانى من الذين أسلموا بألسنتهم، أنَّهم لن يتخلَّوا بسرعةٍ عن عاداتهم التي نشأوا عليها، فالذين أسلموا وهم كبارٌ في السنَّ كان صعباً عليهم التخلص بسهولة من عاداتٍ مرَّنوا عليها، والذين أسلموا خوفاً ورهبةً أو للضرورة وما تقتضيه المصلحة بعد عام الفتح، ففتح مكة جاء بعد ثماني سنوات من الهجرة وما تخلَّها من معارك حربيَّة وكلاميَّة بين المسلمين بقيادة النبيِّ والمكِّيِّين بقيادة أبي سفيان، ليحسم الصراع لمصلحة المسلمين، إذ أنَّ سيطرتهم على مكة (وهي المركز التجاري والاقتصادي والديني والسياسي الأهم في الجزيرة العربيَّة) أوجدت خللاً نوعياً في توازن القوى بينهم وبين أعدائهم دفع هؤلاء إلى التسليم بالأمر الواقع، وإعلان إسلامهم باللسان. كما أنَّ هزيمة قريش أثَّرت في موقف القبائل البدويَّة، التي كانت مصالحها ترتبط بالزعامة القرشية، وكانت قبل عام الفتح قد تعرفت قليلاً أو كثيراً دعوة النبيِّ، وتأثَّرت بالإعلام المضادَّ لشعراء قريش الذين كانوا يهجون النبيِّ والدعوة، إنَّ قبائل عديدة أعلنت إسلامها من دون فهمٍ أو افتتاع بالدعوة الإسلاميَّة، وهذا يوضِّح كيفيَّة دخول الكثير من العرب في الدين، كما يوضِّح السهولة التي خرجوا بها منه (الردَّة)، أو عليه حين رفضوا موضوع الولاية، وجعلوا الدين "إيديولوجيا" يتحكمون بواسطتها برقاب الناس [نعني الذين أسلموا من قريش بعد الفتح]¹.

لذلك أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن تكون خطبته الأخيرة تحذيراً لهم ودستوراً يسيرون على هديه في الآتي من الأيام! ولم يفعلوا؛

إلا من هداه الله!

¹الحواشي:

عباس، دلال، صورة النبي في أشعار معاصريه، مجلة العميد، المجلد الثامن، العدد التاسع والعشرون، رجب 1440هـ/ آذار 2019م.

ما هي الوصايا التي ركّز عليها النبيّ (ص) في خطبة حجّة الوداع؟²

كانت آخر خطبة للرسول، وآخر درسٍ يلقيه على مسامعهم مستخدمًا أسلوب الاستفهام الإنكاريّ، مع ما يتضمّنه فضلاً عن قيمته التعليميّة من تعبيرٍ عن أسىّ كامنٍ في صدر النبيّ وهو يخاطب القوم، مستشعرًا ما سيحدث بعده. قبل أن يشير إلى موضوع الولاية أعاد على مسامعهم (وقد أحسّ بدنوّ الأجل) بعض الوصايا وبعض ما حرّم الله في كتابه العزيز، ومن المسلّم به أنّ هذه المواضيع الواردة كلّها في النصّ القرآنيّ، كان الرسول قد شرحها وفصّلها وبيّن معانيها ومراميها حين نزول الآيات المتعلّقة بها، وبعد نزولها.

² الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج2، ص31، والأمني عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج1، ص10، وصفوت أحمد ذكي، جمهرة خطب العرب، الخطبة 53، 57.

إذا لماذا التركيز على هذه المواضيع دون غيرها؟

إنه الدرس الأخير للمتعلّمين قبل الامتحان النهائي، يعيد باختصار شرح المواضيع الصعب تطبيقها، والتي يتوقّع النبي _ المعلم أنهم سينسونها أو يتجاهلون، قال بعد حمد الله:

“أيها الناس، هل تدرّون في أيّ يوم أنتم، وفي أيّ بلد أنتم؟”

كانوا في الحج، ومع ذلك لم يقل لهم أيها المسلمون أو أيها المؤمنون أو أيها الحجاج، بل قال لهم: أيها الناس، ولهذا دلالته التي لا تحتاج إلى بيّنة.

قالوا: "في يوم حرام، وفي شهر حرام، وفي بلد حرام".

كان يريدون أن يجيبوا بهذا الجواب والمعلم القدير هذا هو الذي يطرح السؤال المتضمّن الجواب ليدركوا أنّ مخالفتهم لما سيسمعونه في هذا اليوم الحرام وفي هذا الشهر الحرام وفي هذا البلد الحرام، حرام مخالفتهم.

ثمّ قال: "الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضللّ فلا هاديّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحتكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس! اسمعوا منّي أبين لكم، فإني لا أدري، لعليّ لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا".

أولى الوصايا التقوى وطاعة الله، لم يفصل لهم ما هي التقوى، لأنّ القرآن فصلها، وأحاديثه صلّى الله عليه وآله وسلّم فصلتها، وميّزت بين التقوى الفرديّة المتمثلة بالعبادات والتقوى الاجتماعيّة أو علاقة الإنسان بالآخر (أو ما يمكن أن نسميه بالتعبير القانوني الحديث: الحقّ العام، الذي يؤدّي إلى الإخلال بالنظام الاجتماعيّ).

ثمّ قال: "أيها الناس! إنّ الشيطان قد ينس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنّه رضي أن يُطاع في ما سوى ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم".

لا شك أنّ النبيّ قد عانى من نفاق القوم ما عانى، وعانى من قلّة فهمهم وانقيادهم طواعيةً لتعاليم الدين الحنيف رغبةً لا رهبةً، على الرّغم من أنّ القرآن حدّثهم من اتباع الطرق التي تضلّ بهم عن الصراط المستقيم، لذلك لم يتطرّق النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى العبادات، وإنّما إلى بعض ما له علاقة بالتقوى الاجتماعيّة أي علاقة الإنسان بالآخر وبالمجتمع، فالتوحيد الخالص والإيمان الكامل، لا يكتمل إلاّ بالإيمان

بما جاء في كتاب الله العزيز وما أوصى به رسوله الكريم، أي بالتقوى بمختلف وجوهها، وعدم إطاعة الشيطان في أمور يعتقدون أنها غير ذات أهمية؛ فدماء المسلمين حرامٌ كأموالهم، فلا قتل ولا نهب ولا سلب، لقد انتهى قتل النفس المحرّمة، وانتهى قطع الطرق والغزو والغارات، وانتهت الخيانات بجميع ضروبها، ومن كان عنده أمانة فليؤدها إلى أهلها، وليتخلّ المؤمن عن عاداته وتقاليده الجاهليّة.

العادة الأولى: التي حرّمها القرآن تحريمًا قاطعًا ويذكّرهم الرسول للمرّة الأخيرة بحرمتها هي تلك المرتبطة بتنظيم المجتمع اقتصاديًا، أي عادة الربا ودائمًا هو كعملم بدأ بنفسه:

" فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وإنّ ربا الجاهليّة موضوع [ساقط ومحرّم]، وإنّ أوّل ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب".

في القرآن جاء الكلام على الربا بعد الكلام على الصدقة³: { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [سورة البقرة : 275-278].

للحثّ على الصدقة وتبيين الفرق بين الأمرين، لأنّ الصدقة بدل بلا عوض وتكافل وتضامن وطهارة وزكاة، والربا استرداد للمال مع الزيادة، وطمع وجشع وذنس وقذارة، وسلب واستغلال، والمقابلة بينهما من حيث الحكم والغاية مقابلة الضدّ للضدّ. لم يُعدّ النبيّ الحديث عن الصدقة وهي من أسس التقوى الفرديّة والاجتماعيّة، وإنّما ركّز على الربا لأنّ تعلق البشر بجمع المال، وهو زينة الحياة الدنيا، أقوى من تعلقهم بالباقيات الصالحات، وسوّغوا فعل الربا بقولهم إنّما البيع مثل الربا مستحلّين الربا، وقد فلسفوه بأنّ البيع والربا متماثلان من جميع الوجوه، فكيف يكون البيع حلالاً دون الربا، وقال لهم القرآن إنّ من عاد إلى الربا فهو خالدٌ في النار والمرابيّ كفّارٌ أثيم، وقال لهم: "اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين"، ولم يتركوه بملء إرادتهم، لذلك قال لهم الرسول إنّ الربا موضوعٌ بادئاً بعمّه العباس.

³ سورة البقرة / الآيات: 275 - 278، وآل عمران/130/ والنساء/161 والروم/39.

العادة الثانية التي حرّمها الدين والرسول صلى الله عليه وآله وسلّم يذكرهم للمرّة الأخيرة بحرمتها، هي عادة الثأر: "وإنّ دماء الجاهليّة موضوعة، وإنّ أوّل دم نبدأ به دمّ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنّ مآثر الجاهليّة موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمدُ قودٌ وشبه العمدِ ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية _ ألا هل بلغت، اللهم فاشهد".

عادة الثأر هذه التي كانت سائدة في الجاهليّة وحرّمها القرآن، وأعاد النبي صلى الله عليه وآله وسلّم التذكير بحرمتها، بادئاً بدم أحد أبناء عمومته بصفته ولي دم أبناء عبد المطلب [علماً أنّه وليّ أمر المسلمين جميعاً]، وكلامه هذا موجّه إلى الذين كانوا لا يزالوا يعدّون أنفسهم أولياء دم أقاربهم، ضاربين بعرض الحائط تحريم القرآن للأخذ بالثأر. ونحن ندرك اليوم أهميّة ذكر هذه النقطة في الخطبة الأخيرة للنبيّ، لأنّ أربعة عشر قرناً ونيّفاً تفصلنا عن ذلك الزمن، ومع ذلك لا نزال نشهد سريان عادة الثأر الجاهليّة واستحكامها في كثير من المناطق التي تُعلي شأن عاداتها البدويّة فوق أوامر الله ونواهيهِ. وقد جعل حق الدم للدولة تقتل القاتل المتعمّد بصاحبه، والعمد ضدّ الخطأ في القتل وسائر الجنايات، أمّا المقتول خطأً فديّته مئة ناقة، وأما شبه العمد، فهو أن يُضرب الإنسان بعمودٍ لا يقتل مثله، أو بحجرٍ لا يكاد يموت من أصابه فيموت⁴.

العادة الثالثة التي تخالف العقل والمنطق، وتشبه (لعب الأطفال)، هي عادة النسيء، وتأجيل شهرٍ أو تقديمه "أيّها الناس: إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً، ليواطئوا عدّة ما حرّم الله، إنّ الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرّم: ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت، اللهم فاشهد".

ضمّن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم كلامه عن النسيء ما جاء في القرآن من تحريم لهذا الفعل في الآية ٣٧ من سورة التوبة: "إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلوها ما حرّم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي الكافرين"، التي ورد فيها بعد عبارة فيحلوها ما حرّم الله قوله عزّ وجلّ: "زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين"⁵. حيث يصف الذين يقومون بهذا العمل بأنهم كافرون. والنسيء لغة بمعنى الإنساء أي التأخير،

⁴ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا تا. ج3، مادة عمد، ص302.

⁵ سورة التوبة / الآية 37.

والمراد به هنا أنّ المشركين كانوا يؤخّرون حرمة شهر كالمحرّم إلى شهر آخر لا حرمة له كصفر، فإذا كان من مصلحتهم أن يقاتلوا في الشهر الحرام قاتلوا فيه ولم يُبالوا، ولكنهم يحرمون بدلاً منه شهرًا آخر من أشهر الحلال لتكون الأشهر المحرّمة أربعة من كلّ عام (ليواطئوا عدّة ما حرّم الله، فيحلّوا ما حرّم الله)، والأهواء والأغراض هي التي تُعمي صاحبها عن سوء عمله فتريه الشرّ خيرًا والحسن قبيحًا.

وكما في التعاليم السابقة، يطرح النبي_المعلم هذا السؤال الإنكاريّ: "ألا هل بلّغت؟" يُلقي عليهم الحجّة، ثم يُشهد الله على ما يقول: "اللهم اشهد".

العادة الرابعة هي النظرة الدنيّة إلى المرأة، فعلى الرّغم من الحقوق التي أعطاهها الإسلام للمرأة⁶، ظلّت نظرة العرب إلى المرأة نظرةً دنيّةً فما كان من الممكن أن تتغيّر عقليّةً وعادات متمكّنة في عقولهم بين ليلةٍ وضحاها، لذلك كان تركيز الرسول في الخطبة_الوصية هذه، على الحقوق التي أعطاهها الله للنساء، ويوصيهم بهنّ خيرًا: ليس للرجل من حقّ على المرأة يستوجب تأديبها سوى حقّ واحد هو أن لا تخونه: وفي ما عدا ذلك فإنّ من واجب الرجل حمايتها ورعايتها والإنفاق عليها...

يقول: " أيّها الناس! إنّ لنساءكم عليكم حقًا، ولكم عليهنّ حقّ، لكم عليهنّ أن لا يوطنن فرسكم غيركم، ولا يُدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشةٍ مبينة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهن⁷، وتهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضربًا غير مبرّح، فإن انتهين وأطعنكم ، فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنّما النساء عوانٍ لا يملكن لأنفسهنّ شيئًا، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيرًا، ألا هل بلّغت، اللهم اشهد".

كانت المرأة قبل الإسلام متاعًا يورث ويُقسّم تقسيم السوائم بين الوارثين، فأصبحت بفضل الإسلام ونبيّه صاحبة حقّ مشروع ترث وتورث، ولا يمنعها الزواج أن تتصرّف بمالها وهي في عصمته كما نشاء. إنّ حكمًا واحدًا من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فُرض عليها:

⁶ عباس، دلال، المرأة في العصر الجاهليّ، مجلة المنطلق، بيروت، العدد ٩٦_٩٧، ١٣٤١هـ، ص 15.

عباس، دلال، حقوق المرأة في الإسلام بين النظرية والواقع، مجلة شؤون الأوسط، بيروت، ٢٠٠٢م.

⁷ تعضلوهن = تضييبنهنا عليهن

“ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف”⁸، وحكمٌ آخر من أحكامه الراقية، أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهةً، غير ذات حظوة من زوجها: “وعاشروهنّ بالمعروف، فإن كرهتموهنّ، فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً”⁹.

ولم يفصل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها..

أما محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم: “وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً وخياركم خياركم لنسائهم”. القرآن ينص على العقوبات السائغة في حالة النشوز وهي العظة والهجر في المضاجع والضرب والتسريح بإحسان، والنبّي يؤكّد لهم في حجة الوداع، إنّ من حقهم على النساء أن لا يوطئن فرشهم غيرهم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلنها فقد أذن الله لهم أن يعضلوهنّ ويهجروهنّ في المضاجع، وأن يضربوهن ضرباً غير مبرح: يذكرهم ويبين لهم أنّ هذه العقوبات غير جائزة ولا مسموحة إلا في حالة الخيانة الزوجية...

لذلك يقول لهم في التتمة: “اتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً”، ويسألهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري: “ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد”.

نعم كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم يعرف أن العرب لن يتخلّوا عن نظرتهم الدونية إلى المرأة، وأنّ نظرتهم إليها لن تتغيّر بسهولة، لذلك ألقى عليهم الحجة للمرة الأخيرة...

مع ذلك لم يستجيبوا لما دعاهم إليه.

الوصية الخامسة التي وردت سابعة في بعض المصادر هي موضوع الإرث الذي حدّد القرآن أنصبة كل واحد من الورثة، لكنّ الناس الذين كانوا يجرمون الضعفاء والنساء من الإرث، لم يعجبهم ذلك فتلاعبوا به، لذلك يقول لهم النبيّ: “أيها الناس! إنّ الله قسم لكلّ وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث”.

مع ذلك تلاعبوا بإرث البنات إن لم يكن للمورث أبناء ذكور، مخالفين تعاليم القرآن، ووصية النبيّ، لم يطيعوا الله ورسوله: البسطاء منهم حباً بالمال، اللؤماء كي يقولوا إنّ فاطمة (عليها السلام) ليست وريثة

⁸ سورة البقرة/ الآية 228.

⁹ سورة النساء/ الآية 19.

أبيها، أوّلاً في موضوع فذك وثانياً في العصر العباسي ليقولوا إنّ العمّ أحقّ بأن يرث ابن أخيه من بنته، وأبناء العباس بن عبد المطلب هم آل النبيّ، لا أبناء فاطمة!

وقال: " الولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادّعى لغير أبيه أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل"

وهذه الوصيّة السادسة: أن الولد للفراش، وإنّ نسبة الأبناء إلى غير آبائهم حرام، مع ذلك، كأنّهم لم يسمعوا هذه الوصيّة، وإلا فلماذا خلفها معاوية ونسب زياد بن سمية إلى أبي سفيان؟! ثم يأتي الدعيّ ابن الدعيّ فيفعل ما فعل!!

والوصية السابعة: يحذرهم من التمييز العنصريّ ومعاملة المسلمين من غير العرب كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ويعلن المساواة التامة بين المسلمين وبين الناس عامّة. بغض النظر عن الجنس واللون، ولم ينس النبيّ ولا التقاة من المسلمين كيف كان عتاة قريش يعاملون المستضعفين، وكيف استنكروا صعود بلال الحبشيّ للأذان على ظهر الكعبة، مع ذلك سينسى المسلمون هذه الوصيّة منذ اللحظة التي عمد فيها الأمويون إلى تحكيم غير العرب في رقاب الناس، ومارسوا تمييزاً عنصرياً بحقّ العرب، لا تزال آثاره قائمة حتى اليوم، بتغليب العروبة على الإسلام..

قال النبيّ: " أيّها الناس! إنّ ربكم واحد وإنّ أباكم واحد، كلّم لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير، وليس لعربيّ على عجميّ ولا لأبيض على أسود ولا لرجلٍ على امرأةٍ فضلٌ إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب".

أمّ الوصايا: "أيّها الناس! إنّما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرئٍ مسلمٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعنّ بعديّ كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا بعده: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير، أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يرد عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما".

وقال المفيد في إرشاده⁰¹: "ثم كان مما أكد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم لعليّ من الفضل وتخصّصه منه بجليل رتبته ما تلا حجة الوداع من الأمور المتجدّدة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم والأحداث التي

¹⁰ الأمين، السيد محسن، في رحاب أئمة أهل البيت، المجلد الأول، ص 290.

اتفقت بقضاء الله وقدره، وذلك أنه تحقّق من دنوّ أجله ما كان قدّم الذكر لأمتّه، فجعل يقوم مقامًا بعد مقام في المسلمين، يحذّرهم الفتنة بعده، والخلاف عليه، ويؤكد وصاتهم بالتمسك بسنته والاجتماع عليها والوفاق، ويحثّهم على الاقتداء بعترته، والطاعة لهم والنصرة والحراسة، والاعتصام بهم في الدين ويزجرهم عن الاختلاف والارتداد، وكان في ما ذكره من ذلك ما جاءت به الرواية على اتفاق واجتماع من قوله، يا أيّها الناس إنّي فرطكم وأنتم واردون عليّ الحوض، ألا وإنّي سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنّ اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يلقياني، وسألت ربي ذلك فأعطانيه، ألا وإنّي قد تركتهما فيكم: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ولا تسبقوهم فتفرّقوا، ولا تقصّروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم. أيّها الناس، لألقينكم بعدي ترجعون كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقوني في كتيبة كحجر السيل الجرّار، ألا وإنّ عليّ بن أبي طالب أخي ووصيي، يقاتل بعدي على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، وكان صلى الله عليه وآله وسلّم يقدم مجلسًا بعد مجلس بمثل هذا الكلام ونحوه".

وبعد أن طلب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم إلى الناس التمسك بكتاب الله وبعترته أهل بيته نادى بأعلى الصوت: "أست أولى بكم منكم بأنفسكم، قالوا بلى"، فقال لهم على النسق وقد أخذ بضبعي أمير المؤمنين عليه السلام: "فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله".

كان يعرف مدى حقد عتاة قريش على عليّ لقتله آباءهم المشركين، أمّا لماذا أوصى لعليّ؟ فلأن لا أحد من المسلمين له الحد الأدنى من مزايا عليّ، ولأنّ الله عزّ وجلّ برّأه وطهّره من الشرك، ولأنّ المسلمين الأوائل يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون علمه وحلمه وعدله وشجاعته وفصاحته وجوده وحسن خلقه ومناقبه وفضائله وتربيته في حجر الرسول، وأسبقيته في الإسلام، وقول الرسول له "أنت أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي"، ومؤاخاة النبيّ له، ولأنّه صاحب راية النبيّ، ووارث علمه إلى آخر ما لا يمكن إحصاؤه من فضائله.

مع ذلك خالفوا أمر النبيّ وأمر القرآن في صغار الأمور وفي عظائمها...

دراسة خطبة حجّة الوداع؛ الوصية أدبيًا وتعليميًا:

أمّا أدبيًا وتعليميًا فخطبة حجّة الوداع أنموذج لكلام الرسول الذي تتمثّل فيه صحّة الطبع، فلا خلافة ولا تزويق، برئت ألفاظه من الإغراب والتعقيد والاستكراه، الذي كان يميّز النثر القليل الذي وصلنا من

العصر الجاهليّ، وهي مع ذلك جزلةٌ لها بهاء ورونق، ولا يتيسّر ذلك الإيجاز البليغ إلّا لمن أوتي الحكمة وفصل الخطاب؛ وقد كان الرسول حريصًا إن هو تحدّث إلى الناس أن يتحدّث بألوانٍ من القول الفني الرفيع يسمو على مستوى الحديث اليوميّ، ويقصد قصدًا واضحًا إلى الجمال أو ما يتصل بالجمال من الوضوح أو التأثير أو الصفاء أو الصقل، ويسلك إلى ذلك كلّ أساليب التمثيل والتصوير والحوار؛ وكان لا ينطق ببلوغ ولا يقصد إلى غير توضيح القرآن والهداية إلى الحقّ أو التنفير من الشرّ؛ كان فصيح اللسان فصيح الأداء، بليغًا على أسس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وإنّ السمة الغالبة على كلامه المحفوظ هي سمة الإبلاغ والتعليم قبل أيّ سمةٍ أخرى، وهي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها لأنّها أصلٌ شاملٌ لما تفرّق من سماتٍ هي منها بمنزلة الفروع... والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعًا، والإبلاغ هو الأسلوب الذي يهدف إلى التربية والتعليم بالطريقة المثلى، وهذا ما نلاحظه في خطبة حجّة الوداع التي تحن بصدد دراستها والإبلاغ الأقوى في كلامه هو اجتماع العلوم الوافية في كلمات معدودات، قد يبسطها الشارحون في مجلّدات، ما يمكن أن نسمّيه علم السلوك في الدين والدنيا، ومنذ يفاعتنا ونحن نحفظ قوله صلى الله عليه وآله وسلّم "إنّ الله تعالى لم يبعثني معنًا متعنّتا، ولكن بعثني معلّمًا، ميسّرًا".

لقد بدأ الرسول الخطبة بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، الذي ينبه الأذهان الغافلة، ويحرّك العقول الراكدة، ويقمّ جسرًا من التواصل بين الخطيب والمستمعين، فالخطيب هنا يريد التعليم، وهذا الأسلوب التعليميّ واضح في طريقة العرض وفي التدرّج من العام إلى الخاص.

يتمنّى الأسلوب التعليميّ في الاستفهام، ثم في الإجابة عن الأسئلة المطروحة وبالتدرّج من العام: "أوصيكم بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته" إلى الخاص: تقوى الله تتمنّى في اتباع التعاليم المذكورة...

أيضًا، تتابعت التعاليم بحسب أهميّتها أو بحسب استحكام العادات التي يريدون أن يتخلّصوا منها في نفوسهم.

إنّ تكرار **يا أيّها الناس**: تأكيدٌ على أنّ الوصيّة عامّة، وغير متعلّقة بالمسلمين المعاصرين للدعوة، أو بالعرب وحدهم، وإنّما هي للناس في كلّ زمان ومكان فضلًا عن أنه استخدم لفظة "الناس" وليس لفظة "المسلمين" أو "المؤمنين"، لأن الواحد من الناس ليصير مسلمًا مؤمنًا يجب أن يتخلص من الهنات التي تؤثر سلبيًا في سلوكه وعلاقته بالآخرين وبالمجتمع.

أمّا تكرار **ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد**، فتأكيد على أنّ الرسول يذكرهم بأنّه رسول الله، وبأن عليه إبلاغهم، وعليهم طاعته، وقد أبلغهم قبل هذه الخطبة _ وعلى مدى ثلاثٍ وعشرين عامًا من قبل _ كلام ربّه، وإنّما

يريد هنا أن يضع عليهم الحجة، فمن تناسى ما في كتاب الله، ما هو يذكّره به للمرة الأخيرة: كما أنه يريد أن يبلغهم أمرًا آخر سيكون ثقیلاً عليهم، وهو أمرٌ من ربه "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" [سورة المائدة_ ٦٧]

هذا البلاغ هو التمسك بكتاب الله وبولاية علي عليه السلام، لأنّ عليًا هو الأذن الواعية والأجدر لتطبيق تعاليم القرآن بعد الرسول. لكنّ العرب غلبوا عاداتهم وتقاليدهم وعنجهياتهم على ما أمرهم به الله ورسوله، ولا يزالون حتى هذه اللحظة يعانون من سوء استخدام الحكام لسلطاتهم...

وقراءة متأنية لكتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشر حين ولآه مصر¹¹، يبين لمن له أدنى

¹¹ عباس، دلال، "رؤية الإمام علي عليه السلام إلى نظام الحكم في الإسلام، من خلال كتابه إلى مالك الأشر" الموقع الإلكتروني: www.dalalabbas.com

المصادر والمراجع

فضلاً عن القرآن الكريم

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا تا.
2. الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لا تا.
3. الأمين، السيد محسن، في رحاب أئمة أهل البيت، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
4. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الفكر، بيروت، لا تا.

بصيرة البونّ الشاسع بين ما يجب أن يكون عليه الحاكم الموصوف في وصيّة الإمام إلى مالك، وبين الذين حكموا المسلمين منذ أن تولّى معاوية الحكم وحتى يومنا هذا.

-
5. صفوت، أحمد زكي، **جمهرة خطب العرب**، ط. الحلبي، مصر، ١٩٣٣م.
 6. عباس، دلال، **القرآن والشعر**، دار المواسم، ط٣، بيروت ٢٠٠٩.
 7. عباس، دلال، **المرأة في العصر الجاهليّ**، مجلة المنطلق، بيروت، العدد ٩٦ _ ٩٧، ١٤١٣هـ.
 8. عباس، دلال، **حقوق المرأة في الإسلام بين النظرية والواقع**، مجلة شؤون الأوسط، بيروت، ٢٠٠٢م.
 9. الموقع الالكتروني: www.dalalabbas.com ، مقالة: رؤية الإمام عليّ عليه السلام السلام إلى نظام الحكم في الإسلام، من خلال كتابه إلى مالك الاشتهر.

